فنون الإنسان في العصر الحجري (الحديث – المعدني)

لقد كان لممارسة الإنسان للزراعة تأثير كبير في جعل الإنسان يميل إلى الاستقرار وترك حياة التجوال فشيد له بيوتا بسيطة يأوي اليها عند الحاجة أصبحت بعد ذلك نواة لقرى زراعية واسعة نوعا ما كما ان اختراع الزراعة وتغير ظروف حياة الانسان قد أديا الى ادخال تنويع كبير في أدوات الانسان وآلاته الحجرية فقد أصبحت أكثر تخصصا وأتقن عملاً وأكثر تنوعا بموادها الخام والتي شملت في أواخر هذه الفترة استخدام النحاس مما جعل بعض الباحثين يطبقون السنية العصر الحجري المعدني على أواخر هذه المرحلة.

واستنادا الى المزايا المعمارية في بعض الابنية والتي جعلت منها تشبه الابنية الدينية، والخواص الفنية للدمى الفخارية والحجرية التي عملت في هذه الفترة، وطبيعة وموضوع بعض زخارف الفخاريات، يمكننا ان نرجح ان نوعا من التحسس بأفكار خاصة ان نرجع الاهتمام بتقديس فكرة الخصب والتكاثر قد ولدت في هذا العصر، فقد تركت هذه المعتقدات. بالإضافة الى البيئة الطبيعية، آثارها واضحة في الاعمال الفنية لإنسان هذا العصر، فهنا يمكن أن نلاحظ أقدم وأجمل تفاعل للقوى المختلفة التي تطبع باختلافها عبر الازمان الاعمال الفنية بشخصيتها المميزة.

تعتبر هذه المرحلة من المراحل الغنية بنتاجات الانسان الغنية فقد شهدت وضع الاسس الاولى لجوانب الفنون التشكيلية في العمارة والنحت والفخار والرسم والتي سنتناول دراستها التفصيلية أدناه:

أ- فن العمارة:

اهتدى انسان هذا العصر بسبب استقراره في مكان ثابت بفضل ممارسته للزراعة وافتقار بيئته الطبيعية الجديدة إلى المأوي الطبيعية الى فكرة تكوين مبنى خاص مهما كان بسيطا لغرض الالتجاء الية عند الحاجة فنشأت فكرة المخيمات والملاجئ المؤقتة وهي عبارة عن حفرة بسيطة في سطح الارض كانت تسقف بأغصان الاشجار.

بعدها كيف الانسان مادة اولية بسيطة متوفرة في كل مكان الطين بمزجه بدقائق من التين كي يزداد تماسكا فأنتج ما يعرف بالطوف الذي استخدم في بناء بيوت أقدم القرى الزراعية في العراق القديم. أما مخططات البيوت الهندسية فكانت غير منتظمة الاشكال في البداية وتتكون من ساحة مركزية صغيرة تتوزع على جوانبها بشكل فوضوي مساحات ضيقة كانت تؤلف عددا من الغرف تسقف بجذوع وأغصان الاشجار.

وفي مرحلة متقدمة من هذه الفترة اعتمد الانسان في البناء بالإضافة إلى الطوف على اللبن وذلك بتشكيل قطع من الطوف بواسطة قوالب كانت تجفف بالشمس كي تتصلب، فأصبحت الجدران تبنى بصفوف افقية منتظمة من اللبن واستخدام الطين كمادة رابطة. أما مخططات البيوت فقد أصبحت ذات أشكال نظامية فهي قد تكون مستطيلة أو مربعة أو دائرية الا أنها في جميع الاحوال تشير إلى التفكير المعماري بأعداد المخطط الهندسي المنتظم قبل تنفيذ البناء. ويتم الدخول اولا في أغلب البيوت الفلاحية هذه من مدخل يقع في أحد اضلاع البناء نحو مساحة مركزية يتفق شكلها مع مخطط البناء الخارجي وتكون مكشوفة لتعذر تسقيفها بجذوع الاشجار بسبب سعتها ولا يصال النور الى الغـــرف الجانبية والتي تتوزع على جوانبها بشكل منتظم ويتحدد عددها بحج العائلة الفلاحية، وتسقف هذه الغرف بجذوع الاشجار وأغصانها بشكل مستو أو مقوس في قليل من الاحيان وتطلى السقوف من الخارج بطبقة من الطين للحيلولة دون تسرب الامطار في الشتاء. أما الارضيات فكانت ترصف بوضع افقي بطبقة من القصب وتطلى بطبقة خفيفة من الطين للتخلص من رطوبة الأرض.

وكانت بيوت هذه الفترة الموغلة في القدم تتوزع في بعض الاحيان على جوانب ممرات ضيقة فتشكل قرية زراعية تتميز بتنظيم جيد نوعي لمرافقها البنائية.

ومن الجدير ملاحظته أن نوعا من التميز في الخواص المعمارية للأبنية تبعاً لوظيفتها قد بدأ بالظهور في هذا العصر، فقد تميزت بعض الأبنية بطراز خاص له صفات مشتركة مع الأبنية الدينية (المعابد) التي اكتملت خواصها المعمارية في الفترات اللاحقة كتزيين جدرانها الخارجية بالطلعات والدخلات وهي ميزة معمارية وظيفتها تقوية أو إسناد دارن البناء، وكتوجيه جدرانها الأربعة للجهات الأربع، وكونها ذات أشكال منتظمة مستطيلة الشكل تتألف من ساحة مستطيلة يمتد على طولها ضلعيها الطوليين عدد من الغرف وتعزل أكبرها في مكان مميز

ليوضع فيها تمثال خاص بالرز المعبود من قبل إنسان ذلك العصر ولا شك أن له علاقة بعبادة قوى الخصب والتكاثر بشكل عام.

إن انجازات إنسان هذا العصر في ميدان العمارة على الرغم من بساطتها إلا أنها تحتل مركزاً مهماً في تاريخ العمارة العراقية القديمة، فقد وضعت فيها الأسس الأولى للتفكير المعمري والهندسي في البناء فإذا أخذنا بنظر الاعتبار افتقار بيئة السهول الطبيعية في العراق إلى مواد جاهزة للبناء كالأحجار فإن تكييف الطين للبناء واختراع اللبن يعتبران انجازين مهمين بهذا الخصوص. كما أن انتظام مخططات الأبنية والتنسيق الجيد لتوزيع أجزائها وأشكالها المتنوعة وتزيين جدرانها الخارجية بالدعامات كل ذلك يشير إلى نوع التحسس الجمالي في فن العمارة، ولعل اختلاف أشكال الأبنية المدنية عن الأبنية الدينية الذي نشأ في هذا العصر يشير إلى توسيع أفق التفكير المعماري لدى معماري هذه الفترة.

ب- فن النحت:

إذا كان يشك في ظهور الديانة عند انسان العصر الحجري القديم، فأن تبلور بذور الديانة في هذا العمر يكاد ان يكون من الامور المؤكدة. ولعل أول معبود تصورته المجتمعات الفلاحية في هذه الفترة كان ذا صلة بقوى الارض المنتجة المولدة وخصبها، كما يرجح أن يكون أول تصوره الانسان كان على هيئة الهة تمثل الارض وخصبها، وهي الالهة التي يطلق عليها اسم الالهة الام Mother-goddess لذا فقد استخدم بعض مواد الخام التي يسهل نحتها وأهمها الطين في عمل تماثيل صغيرة (دمى) لها علاقة بأشكالها بفكرة النماء والخصب والتكاثر الشغل الشاغل لإنسان هذا العصر، لهذا كانت معظمها تمثل بمواضيعها أشكال نساء لعلاقة العنصر الانثوي في الحياة بشكل عام بمثل هذه الافكار.

عملت اغلب هذه الدمى من طينة نقية يعتني كثيرا بتحضيرها، ثم أحرقت بالنار كي تتصلب. وتشير أوضاع هذه الدمى الصغيرة الى مهارة النحات- وهو في اولى تجاربه- في تنويع أوضاع تماثيله الصغيرة هذه، قبضها شكلت يوضع الوقوف والبعض الآخر مثلت بوضع الجلوس على الأرض، ومهما تنوعت الأوضاع فأن اشكال هذه الدمى تتميز بتركيز اهتمام الفنان في بعض أجزاء الجسم واهمال البعض الآخر فمثلا اهملت اشكال الرؤوس في بعض هذه

الدمى، بينما مثلت في اخريات بهيئة طولية لم يراعى فيها توضيح ملامحها فبدت وكأنها رؤوس أفاعي لصقت بأجسام بشرية. بينما بقي التركيز الاساسي للنحات في جميع الاحوال هو بتضخيم بعض أجزاء الجسم كالثديين والعجز لعلاقة ذلك بالدافع الاساسي للعمل الفني الا وهو تجسد فكرة الخمير والتكاثر في أشكال هذه الدمى الصغيرة والتي تمثل أقدم تماثيل آلهة في تاريخ الفن العراقي القديم.

الا ان تجسيد فكرة النحات هذه لم تكن دائما على هذا المنوال، فبعض الدمى الفخارية التي استظهرت ضمن هذه الفترة في جنـــوب العراق كانت لها أجسام طبيعية تقريباً بل وتميل إلى النحافة، إلا أن النحات عبَّر عن أفكاره هنا يجعل كل منها ترضع طفلا صغيرا وقد أمسكت به بكل حنان على صدرها، أن فكرة الفنان هنا تشابه الاولى الا إن الاختلاف يكمن في وسيلة وطريقة التعبير الفني.

لقد كان اسلوب تحت هذه الدمى بدائيا بسيطا لم يراعي فيه النحات اهتماما في صقل السطح الخارجي أو توضيح معالم أجزاء الجـــم أو تجانس نسبها الطبيعية، فاليدان نحتا كجزء من الجسم، والساقان مثلتا كتلة واحدة دون الفصل بينهما. كما أشير إلى أصابع الكفين والقدمين بشكل مختصر وبسط وبأسلوب الحزوز. وعلى الرغم ذلك كان النحات حريصا في بعض النماذج على توضيح معالم الوجوه بالألوان كتأشير الحاجبين وأهداب العينين وخصل الشعر المتدلية على جانبي الوجه، وإضافة أكاليل سوداء من مادة القير على الرؤوس التمثل الشعر، ولون أجسامها بخطوط لتمثل زخارف الملابس أو الوشم.

وعندما تعرض الشكال هذه الدمي الفخارية والحجرية التي أنتجت في مثل هذه الفترة المبكرة في التاريخ للنقد الفني. يجب ان لا تقاس بالموازين الجمالية @

مايكل أنجلو، لأن لكل فترة من فترات التاريخ الفني مقاييسها الخاصة حسب مهارة الفنان وأفكاره وتجاربه وظروفه المختلفة، لذا فأن في أشكال هذه الدمى إبداع كبير وابتكار فني أصيل يتجسد في تشكيل مادة الطين أو الحجر الصلب ولأول مرة في تاريخ النحت العراقي القديم بهيئة أشكال بشرية تختلف بهيئتها عن البشر الطبيعي لأنها تترجم أفكار ومعتقدات خاصة، وتمثل قوى عليا اذان الإنسان بها وكرسها للعبادة.